فلسفة السيرة الذاتية

أ/ عبد الرحمان مزرق
جامعة جيجل

تمهيد:

عرفت الأمم القديمة صورة للترجمة الشخصية عبر تلك التواريخ و الكلمات التي كانت تنقش على شواهد القبور و الأضرحة. وقد كان للمصريين في العهد الفرعوني سبق وريادة في تلك المنقوشات و المنحوتات التي خلدتها أهراماتهم و معابدهم وما احتوته من قبور ملوكهم وكبرائهم ، وتلك الآثار الباقية التي تذكرهم،أو التي أرادوا من ورائها ذلك الخلود. ثم أعقب هذه المرحلة ظهور تلك الكتابات المتفرقة التي تترجم لأصحابها بطرق مختلفة شتى ؛فقد كان ملوك الفرس يسجّلون وصاياهم لأبنائهم موضحين طرق سياستهم لرعيتهم حيث ذكر "مسكويه" في كتاب "تجارب الأمم" أن كسرى "أنوشراون" ألف كتاباً في سيرته السياسية ، وذكر حروبه وانتصاراته على الروم والترك، كما صوّر سياسته الدّاخلية و سيرته مع مواطنيه و مواليه[1].

كما سجّل "يوليوس قيصر" في كتابه "التعليقات" تلك الحروب التي كان يخوضها في بلاد الغال وغيرها وتعرُّضه للدّسائس و المؤامرات التي كانت تنسج حوله من القريب و البعيد والمتآمر و الصديق..

ومع مرور الزّمن بدأ النّاس يتحرّرون من دين ملوكهم، وبدأت نسائم الحرية الفكرية تهب على العقول و الأنفس ونشأت على إثر ذلك طبقات المفكرين و الفلاسفة و العلماء الذين أودعوا كتاباتهم الكثير من تجاربهم الشخصية وسيرهم الذاتية ، على غرار ما فعل "جالينوس" الفيلسوف والطبيب اليوناني المشهور الذي صوّر نشأته و حياته العلمية تصويراً دقيقا ،فتحدث عن تربيته و سلوكه ومؤلفاته، وما صادفه في بعض المحن.وطبيعيٌّ بعد هذا أن يتأثّر بهذا الفيلسوف من قرأ آثاره وكتبه، وطبيعيٌّ جدًّا أن يضرب على منواله ويسير سيرته في الحديث عن نفسه وحياته. ولعل "حنين بن إسحاق" المتوفى سنة(260هـ/873م)كان أكثر المتأثرين به و المعجبين أشد الإعجاب ،وكونه كان أكبر مترجم لكتب "جالينوس" الشهير ، فقد عدته تلك الكتابة ، فصوّر لنا ما أصابه من المحن والشدائد معبرا عن مدى حزنه وحرقته في رسالة عدّها "شوقي ضيف " أقدم نصّ في ترجمة المتفلسفة لأنفسهم ، وكانت هذه الرسالة قد حفظت في كتاب "طبقات

الأطباء" لصاحبه "ابن أبي أصيبعة"[2]. ثم توالت الكتابة، وتوالت التراجم و السيّر.. حتّى كانت السّيرة الذاتية جنساً أدبياً حديثاً .

مفهوم أدب السّيـرة الذاتيـــــة:

يعتبر هذا الجنس الأدبي حديثًا نسبيًا بين الأجناس الأدبية الأخرى ، لذلك لم يوجد له تعريفًا جامعًا مانعًا يحدُّه ويجلِّيه، ويأتي هذا الامتناع و الاستعصاء من مرونة هذا الجنس ، وتداخله بين أجناسٍ أخرى ،جعلته قادرًا على التحوُّل و التماهي..

ومهما يكن من شيء فإن الدراسات القديمة نأت بنفسها و أحجمت عن وضع أيِّ تعريفٍ لهذا الجنس ، وذلك منذ "أرسطو" وإلى عهدٍ قريبٍ جدًّا، باستثناء محاولاتٍ يسيرة لا ترقى إلى مستوى التّعريف العلمي الدّقيق ، وإن كانت تأسيسا لما سبق في بعدها.

وبعد نظرة في بعض الدراسات التي سبقتها ، قامت الأستاذة "تهاني عبد الفتاح شاكر" في كتابها "السيرة الذاتية في الأدب العربي" بتصنيف معظم تعريفات من خاضوا التجربة إلى قسمين[3]:

القســم الأول: الذين رأوا في السيرة الذاتية نوعًا خاصًّا من مسيرة الحياة ،يسرد فيها المؤلف حياته بقلمه.من ذلك ما ورد في الموسوعة البريطانية بأنّ السيرة الذّاتية نوع خاص من السّيرة.

وكذلك ما وضعه"فيليب لوجون" بأنها: حكيٌّ استعادي نثريٌّ ،يقوم به شخص واقعي عن وجوده الخاص،و ذلك عندما يركز على حياته الفردية وعلى تاريخ شخصيته بصفة خاصة.

أو تعريف "ستاروبنسكي" في قوله: "هي سيرة شخص يرويها بنفسه" .ومن الباحثين العرب من عرّفها بأنّها تعني حرفيًا ترجمة حياة إنسان كما يراها هو ، و هذا ما ذهب إليه "عبد العزيز شرف".

وكذلك تعريف "محمد عبد الغني حسن" الذي يقول بأن :"التراجم الذّاتية الشخصية هي أن يكتب المرء بنفسه ، فيسجّل حوادثه و أخباره ، و يسرد أعماله و آثاره ،و يذكر أيام طفولته، وشبابه ، وكهولته ، وما جرى له فيها من أحداث تعظم و تضال تبعا لأهميته".

والمتأمل لكّل التعاريف سابقة الذكر يلاحظ و للوهلة الأولى غياب الحديث عن ذلك الرّابط الفنيّ المتسلسل الذي يرتقي بأيّ حديث عن النّفس و الذات لأن يكون سيرة ذاتية،و إلا كان كل حديث يسرده الفرد عن نفسه هو من هذا الباب.

ومن هذا المنطلق عرّفها "يحي إبراهيم عبد الدّايم" في كتابه "الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث" بقوله « الترجمة الذاتية الفنية هي التي يصوغها صاحبها في صورة مترابطة على أساس من الوحدة والاتساق في البناء والرّوح..وفي أسلوب أدبي قادر على أن ينقل إلينا محتوى وافيًا كاملاً عن تاريخه الشخصي ، على نحو موجز ، حافل بالتجارب والخبرات المنّوعة الخصبة ، و هذا الأسلوب يقوم على جمال العرض ، وحسن التقسيم ، وعذوبة العبارة و حلاوة النّص الأدبي، وبثّ الحياة والحركة في تصوير الوقائع و الشخصيات ، وفيما يتمثله في حواره مستعينا بعناصر ضئيلة من الخيال لربط أجزاء عمله حتى تبدو ترجمته الذاتية في صورة متماسكة محكمة ، على ألاّ يسترسل مع التخيل و التصوّر حتى لا ينأى عن الترجمة الذاتية» [4].

والقارئ لهذا التعريف يلاحظ ما فيه من إطناب و تذكير بالناحية الأدبية و أسلوبها و صورها، حتى كاد يغطي على البناء الفني للسّيرة الذاتية التي قامت ركائزها عليه أول ما قامت..و كما يقول فيليب لوجون "يجب ان يكون النص حكيا قبل كل شيئ ،غير أننا نعرف المكانة التي يشغلها الخطاب في السرد الاتوبيوغرافي" [5].

القســـم الثاني: الذين ذهبوا في تعريف السّيرة الذاتية مذهب المقارنة مع غيرها من الأجناس الأدبية ، و ذلك عن طريق الإشارة إلى اختلافها عن الفنون الأدبية القريبة منها ، ومثال ذلك قول" جبور عبد النّور"« السّيرة الذاتية كتاب يروي حياة المؤلف بعلمه ، و هو يختلف مادّةً ومنهجاً عن المذكرات واليوميات» [6].

وهي عندهم نوع من الأدب الحميم، الذي يكون أشدُّ لصوقا بمؤلفه من أية تجربة أخرى يعانيها ، وهي في طبيعتها تجمع بين التحّري التاريخي و الإمتاع القصصي الخلاّب،الذي يأسر القارئ و يجعله متعاطفا مع صاحب السيرة إلى حدود بعيدة.

وذهب "فيليب لوجون" في كتابه " السيرة الذاتية: الميثاق و التاريخ الأدبي" إلى أن السّيرة الذاتية« حكيٌّ استعاديٌّ نثريٌّ يقوم به شخص واقعي عن وجوده الخاص ، وذلك عندما يركز على حياته الفردية ، وعلى تاريخ شخصيته بصفة خاصة». وهو هنا يؤكد على وجوب التطابق بين المؤلف والرّاوي و الشخصية الرئيسية في السيرة، على أنّه يبين كذلك بأن مسألة التطابق لا يمكن التوثق منها عندما لا يشير العمل الأدبي إلى نوعه.هل هو سيرة ذاتية أم رواية.ولابد ان نشير

كذلك إلى أن "خيال كاتب السيرة ممسوك الزمام لان السيرة هي إعادة تقديم صورة لحياة إنسانية"[7].

وبالجمع بين مختلف تعريفات القسم الأول والثاني ، وضعت "تهاني عبد الفتاح شاكر" تعريفا للسيرة الذاتية، انطلاقا و اعتماداً على تعريف "فيليب لوجون" حيث قالت:

« أنّها حكي استعادي نثري، يتّسم بالتماسك، و التسلسل في سرد الأحداث، يقوم به شخص واقعي عن وجوده الخاص، وذلك عندما يركّز على حياته الفردية ، وعلى تاريخ شخصيته بصفة خاصّة، ويشترط فيه أن يصرّح الكاتب بأسلوب مباشر أو غير مباشر أنّ ما يكتبه هو سيرة ذاتية» [8].

و نحن لا يمكننا أن نوافق الأستاذة على هذا الشرط الأخير، لأننا نعتقد أن المضمون والشكل هو الذي يحدد الجنس و النوع وليس التصريح و العنوان والدعوى.ومع كل ذلك فإن السّيرة الذاتية تبقى ذلك الجنس الأدبي الجوال الذي يأبى التعريف الحقيقي و التحديد الدقيق..وذلك راجع لوجود أنواع أخرى قريبة منه متداخلة معه نذكر منها :التاريخ ، السيرة الغيرية، المذكرات، اليوميات، و الرواية. التي تتشابه معها ولكن ليس لحدِّ التطابق و ربما كان ذلك التميّز الخاص هو الذي يحدد نوعاً عن آخرَ..

لماذا تكتب السّيـــرة الذاتية؟:

إنّ الإنسان مجبولٌ على حبِّ نفسه والتحدث عنها، وأغلب النّاس حديثهم عن أنفسهم إنّما يكون بطريقة شفوية مباشرة ،ومن كتم حديثه فإنّما لعارض من دين أو خلق أو نحو ذلك. وبعض النّاس يلجأ إلى التلميح دون التصريح لأنّ ذلك الحب المكبوت ينفجر معبّرا في صور شتى.و كاتب السيرة يفعل ذلك مغالبة للموت وحبا في الخلود."فهو عندما يدون حياة شخصية أدبية أو فكرية أو سياسية، إنما يقدم الدليل القاطع على أن ذكرى تلك الحياة–التي عاشها–قد استمرت بعد فناء الجسد"[9].

وإذا كان هذا الحديث حظّاً مشاعا بين بني البشر جميعا « فإنه من بعض صوره قسمة تختص بالأديب أو الفنان،لأنّ "الأنا" حاضرة لديه مقنعة أو مكشوفة . وهي تتقنع وراء شخصيات المسرحية و القصّة ، لأن صاحبها يحبُّ أن يخلق المرايا المجلوة ، وينظر إلى نفسه فيها ، وهي مكشوفة إذا كان يترجم لذاته ، ويتحدث عن سيرته» [10].

ولكن هل يتحدث الأديب و يكتب عن نفسه كما يفعل عامة النّاس؟ الأكيد أنّه لا يفعل ذلك أبدا في سيرته الذّاتية، فعمله هذا ليس كحديث النّاس فهو لا يتّسم بالسذاجة و السّطحية والغرور ، و لا سيرته هذه هي من باب تدوين المفاخر و المآثر ، و إلا كانت كحديث المتشدقين الثرثارين الذين يصدمون الذوق بما يلقون و ما يديعون من دعاوى منتفخة و غرور عريض.

بين المتحدث عن نفسه من العامة، وبين كاتب السّيرة الذاتية فرق كبير ، فحديث الأول كلام و حديث الثاني لباقة و لياقة وأدب و خبر ، الأوّل كلّما أمعن في تيار الحديث يثير شكنا ،والثاني لا يزال كلّما أمعن يثير شفقتنا و يستخرج الثقة الممنوحة له منّا.وهكذا يبقى الأول عاديا ، ويصبح الثاني شيئا آخر في أعيننا و في ضمائرنا لا لشيء إنّما لاعتقادنا أنّ ما كتب لم يكن لملء الفراغ ، و إنّما لتحقيق هدف و بلوغ غاية..ولعلّ أبسط الغايات من ذلك ما ذكر "سبنسر" في سيرته وهي أنّ يجعل كتبه واضحة لمن يقرأها ليعّرف النّاس بالكتب التي ألّفها ، والتي يزمع تأليفها و كثيرا ما كانت السيّر و التراجم مفاتيح لما انغلق من المفاهيم..و أبوابا مشرعة لولوج عالم الأفكار و الرأي و النظر والحقائق التاريخية التي غفلها السرد الكرونولوجي.

ومما لا شك فيه، أن الأسلوب الرصين لكاتب السيرة الذاتية ، هو الرابط بين القارئ و بينه ، وهو السبب المباشر في ذلك التعاطف و التفاعل، وبفضله تتلاقى الأنفس و تتقارب القلوب، وهو الشرارة والوهج الذي ينقدح في الأعصاب، فتتقبل الأسرار والخبايا وتصبح أمينة عليها. بل يصبح العقل متجاوزا لكثير من الهنات المسرودة، وقد تماهى مع الكاتب وكسب ثقته وإعجابه ..فمالت عينه عن كلّ عيبٍ وغضت عن كل خطأٍ و ريبٍ..بفعل الصداقة والتحبُّب..وسلطان التجلّة والتهيّب..و إذا بلغ الكاتب بأسلوبه من القارئ هذا المبلغ ،فقد أدى ما عليه..ونفسه بعد ذلك إلى الرضا والسكينة أقرب،لأنه أفضى بما في قلبه و سره،و أفضى بما في جعبته و يديه ،وهو بأسلوبه ذاك لم يحسّ تحرجاً،ولم تضق نفسه تأثماً،إنما كان ينفّس كربه و يبثُّ شكواه،ويودع خفاياه ووصاياه إلى غيب أمين..و قارئ وديع صديق "وقد يكون العالم الداخلي الذي يطلعنا عليه، صورة لصراعه مع الحياة في الأحوال التي يعدّها النّاس طبيعية عادية، وقد يكون نتيجة لفترات الاضطراب و الحرب و الاستبداد، والثورات، فهذه العهود مجال خصب تظهر فيه السّير الذاتية بغزارة. وقد دلّ الاستقصاء على أنّ فترة الحرب الثانية كانت خصبة وافرة

الحظ من السيّر الذاتية. وأن الكتاب كانوا على استعداد لتحقيق ذاتيتهم، وأنّه كانت لدى القرّاء رغبة للهرب من الحاضر إلى ذكريات الماضي، و خاصة بين الكبار الذين منعتهم شيخوختهم من الاشتراك في الحرب" [11].

وكاتب السيرة بهذا العمل يعرض خبراته على الآخرين بغية طلب المشاركة ، فهو يحاول أن يتحدث في صدق و صراحة ، وأمانة و تجرّد وهو يصوّر ماضيه بماله و ما عليه ، بمآثره و عيوبه ، بفضائله و نزواته وبما كان يحمله من زلاّت و حسنات ، وهو يحاول في هذا كله أن يأخذ نفسه بمأخذ الجدّ والصرامة ، وأن يكون ذا نظرة موضوعية بعيدا عن العجب والذاتية . بعيدا عن حظوظ النّفس التي تحب الاستعلاء و طلب المكانة و لو على حساب انتقاص أقدار الآخرين و بخسهم أشيائهم ..فإن فعل بسيرته هذا و بلغ،جاءت مستوفية لشروطها متّسمة بالأصالة و الصّدق خليفة بالذوق و التأثير.

على أن هذه المرتبة آنفة الذكر لم تبلغها الا سير قليلة و أقلام جليلة و قد كانت مطلب الكثير، ولكن قصرت عنها الأماني ،وكلّت عنها العقول بتاريخها،و أبطأت عن بلوغها الرّاحلة بمن يريدها ،فليست كل سيرة أدباً،و لا كلُّ أدبٍ صادقًا،بل لقد قيل :إن أعذب الشعر أكذبهُ..

إنّ كل تجربة ذاتية بلغت مرحلة النضج كان لزاماً أن تكتب ، لأنَّ صاحبها بنضوجها سيكابدُ فترات عسيرة من القلق الفنّي ، وسيبقى هذا المخاض يؤرقه إلى أن يضع مولوده إلى النّاس.

« والنّاس مهما يطل عليهم الأبد و تختلف أحوالهم هم أحد الرجلين:

رجل وصل إلى حيث يؤمل ، وانتصر على الحياة وصعابها ، وأحسن التخلص من ورطاتها و شعابها ، و رجل كافح حتى جرحته الأشواكُ وأدركهُ الإخفاقُ ، وكلا العاملين، أعني الوصول والخيبة، يبلغان بالتجربة حدّ النّضج على شرط واحد ، هو اكتمال التصوّر لأطراف هذه التجربة و رؤيتها عند التطلع إلى الماضي ، على أساس من نظرة ذاتية خاصة ، ولولا هذا الشرط لكان كل إنسان قادراً على أن يكتب سيرة حياته» [12] . ولا تبلغ التجربة حدّ النضج إلاّ إذا رأى صاحبها مكانة من الحياة ،ولن يبلغ شيئا من ذلك إلا إذا كانت تجاربه وحدة متكاملة و كانت لديه قاعدة و مبدأ يفلسف من خلالها الحياة ، و بهما يستطيع مقابلة الحقائق و الوقائع.

وقد يضاف إلى هذا تلك الحاسة و ذلك الإحساس الذي يتميّز به الفنان و الأديب وصاحب العبقرية عن غيره من أكثر السواد، وفي ظل هذا الإحساس البالغ يستطيع أن يبدع و بها فقط يأسر النّاس و يقنع..ولا شكّ أنَّ هذا فرقاً أصيلاً بين الفنان و بين غيره ، وهو سرُّ تفرّده في الحياة ، وهو كذلك سرُّ سعادته و شقائه ، وأنّ كثير من حوله لا يعلمون هذا، ولا يقدّرونه حقَّ قدره ، والواقع أنّ التجارب في الحياة متعددة،ولكنَّ التجارب الروحية منها و الوجودية –وهي ضرب منها– أشدُّ حتّاً على كتابة السيّر الذّاتية الجميلة المؤثرة ، ومن هذا القبيل كانت الاعترافات للقديس" أوغسطين" ، وكذلك اعترافات "تولستوي" ، وما صوره "الغزالي أبو حامد" في "المنقذ من الضلال" ، وكذلك مذكرات "ماري بشكر تسيف" وكثير من سيّر الصوفية وتراجمهم التي تصوّر سلوكهم و جوانب عديدة من غرائبهم وكراماتهم ومكاشفاتهم و ما عرض لهم من أحوال. « وهم في ذلك إنّما يصفون أنفسهم ويعرضون سيرتهم ، وقد يعرضونها شعراً ، وقد يعرضونها نثراً أشبه ما يكون بالشعر ،ففيه الإبهام والغموض ، وفيه هذا التطلع الحالم إلى أشعّة الذات العليّة.ولعلّ ذلك ما يجعل قراءة هذه التراجم محببة إلى النّفس.لأننا نجد فيها تجارب تأخذ بألبابنا ومجاهدات تشبه مجاهدات الفراش حين يحوم على النّار ، يريد أن يسقط فيها ، وهي مجاهدات و تجارب بدأت منذ "رابعة العدوية" ومعاصرها "إبراهيم بن أدهم" »[13].

أمّا التجارب التي تصور الصراعات الفكرية ، فهي أقرب النماذج إلى التجرُّد في الحكم و الصدق في الخبر " ومن هذا القبيل سيرة "جون ستوارت ميل" ، وسيرة المؤرخ الإنجليزي "جيبون" ، وسيرة "أدمندغوس " التي سمّاها "الأب و الابن" ، وصوّر فيها صراع جيلين مختلفي الاتجاه والنظر والميول. وكل هذا يضع هذه السيّر الذاتية في مرتبة أعلى من أنواع أخرى منها "[14]إنّ تصوير الصّراع بضروبه المختلفة هو أبرز ملامح التجربة الذاتية ، فمن خلال هذا التصوير يطلعنا الكاتب على دخائل نفسه و أثر الأحداث فيها ، مظهراً كلّ ما ينعكس على مرآة ذاته من وقائع الماضي ، مراعيا تفصيل كل مؤثر في شخصيته و سلوكه ،ذاكراً مراحل النّمو والتحوّل على مراحل العمر المتعاقبة ، ملتزماً تواتر الأيام و تدرج التاريخ.

وهوبعد هذا كله يحاول التأثير في متلقيه ..فيضع الخطة والشراك ، ويحرك تيار وعيه الباطن ،ويجيش وجدانه بما أسرَّ ويلقي حباله الأدبية فتأسر القارئ و تقيّده ، وتقيم بين الاثنين رابطة وعاطفة « إذ هو حين يصوّر كل ذلك يحمل القارئ لترجمته الذاتية إلى الارتداد إلى ذاته

ليقيس تجاربه و مشاعره بتلك التي تصّور أمامه ، وهو حينئذٍ يعرض علينا مثالا حيا من نفوسنا ، وكل ذلك من ركائز التأثير الممتع الذي يثير فينا إحساساً دراميأ ، فيرقى بنا إلى ذروة النقاء أو قمة التطهّر» [15] .

وكاتب السيّرة الذّاتية يرغب في الانتصار على الموت ، حين يسعى إلى توثيق حياته الماضية وإخراجها من الإهمال و النسيان، والرغبة في الخلود طبيعة فطرية في كل إنسان ،ولكن هذه الرغبة تشتدُّ عند الشعور بالتفرُّد والتميُّز ،ففي هذه الحالة يقوى إحساس الإنسان بأنّه يستحق البقاء ، وأنَّ أفكاره وما كان يريد لابدَّ أن يكتب لها الخلود..و أشدُّ ما تكون هذه الرغبة في التوثيق عند حدوث طارئ من مرض و نحوه أو عند الإحساس بنهاية الحياة و دنو الأجل.

ويمكن أن تكون كتابة السّيرة الذاتية استجابة لدوافع خارجية ، كالرّغبة في تعليم الآخرين و توجيههم أو للدفاع عن النّفس وتبرئة الضمير، أو ربّما لطلب الملائمة مع الظروف المحيطة ، فقد تمرُّ بالإنسان بعض التجارب تجعله في حاجة إلى إعادة النظر و إلى مراجعة الذات ، أو ربّما يكتبها لانّ العمر لم يكن ليكفيه لتحقيق مشاريعه و طموحه ، فهو يريد أن يحملها من بعده ، أو ربّما لأنه أدى رسالته في الحياة ، فهو يريد أن ينهيها بالرّضا والاطمئنان ومهما يكن من شيء..فإنّ كاتب السّيرة الذّاتية يعيش قبل كتابتها حالة من القلق و الاضطراب تزاوله ولا تنتهي عنه..حتى يفضي بما يريد..وعندئذ فقط يتخفف من حمله و يلقي العبء عن كاهله..وغالبا بعد ذلك ما يصل إلى حالة الاستقرار و الرضا.

فلسفــــــة السّيــرة الذاتيـــة:

لكل موجود إنساني حياة شخصية باطنية تشع بصورة أو بأخرى على حياته الخارجية وترتبط مشرئبة بحياة عليا تستمد منها العون و تذوب في فضائها الرحب الفسيح.

وبتظافر هذه الحيوات وترابطها وتكاملها تضمن عملية الاستمرار والانتظام ، حيث تجري الحياة حارّة دافقة نافعة في عروق الإنسان ، وبذلك فقط ينعم بالاتزان و الاستقرار و العطاء. أمّا إذا اختلت هذه الروابط و انفصلت الواحدة عن الأخرى ، فإنَّ الحياةَ تذبُلُ و تجفُ وتنعدمُ بالكلية..

والسّيرة الذاتية التي تنبع من القاموس الإنساني تحقق لكتّابها هذا التوافق و الاتزان،« إذ تيسّر له أن يعيش حياته الداخلية والخارجية والعليا من خلال ذكرياته ، والكشف عن أسرار حياته الباطنية ، و تأمّل ذاته العميقة ، بما فيها من ثراء داخلي ، يمثّل عالماً أصغر» (16).

ومهما انشغل الإنسان في حياة مجتمعية تلهيه وتغنيه ، ومهما اختلط بالآخرين و ذاب في العالم فإنَّ مقتطعات من وقته ومن عمره ، يعود فيها إلى ذاته ليحاور نفسه و تحاوره ، ويلومها وتلومه ويضع النقاط على حروفها في مراجعة و حساب ، واستحسان وعتاب، ويغدو بذلك شخصاً يعيش حياته الباطنية بعيدا عن الاستغراق في المجموع ، فيؤثر الوحدة ، ويميل إلى العزلة و الانطواء ، ويذوب في التأمل و الاستبطان ، وينفتح العقل على التفكير ، ويقوم الضمير بالوخز والتبرير، فتنطلق عملية الوعي من سباتها ، وتنطلق الرّوح مرفرفة في سمائها،فيخرج الإنسان من عزلته وليس الذي دخل،صقلت روحه،وتهذبت نفسه،وانتظمت جوارحه،وتغنّى بعد ذلك وابتهج بما قال القائل:"ما نفع القلب مثل عزلة يدخل بها ميدان فكرة".

و إذا كان فعل الكتابة لا يتم دون أن يصمت الكاتب ، فإن هذه الحالة أقرب ما تكون انطباقاً على كاتب السّيرة الذّاتية ، الذي يحاول جمع شتات نفسه ، بقطع الصّلة عن محيطه الخارجي،فهو يشعر بتلك الخلجات التي يكابدها الشاعر في نشدانه للوحدة و الذكريات ،وهو في كل ذلك يحنُّ و يجد،و يأمل و يرجو،و يتمثلُ أبدا قول من قال:

وما حبُّ الدِّيارِ شغفنَّ قلبي ولكن حبُّ من سكنَ الدياراَ

« إنَّ الأديب حينما يفرغ لسيرته الذّاتية يحاول أن يختلي بنفسه في لحظة صدق مع النّفس، و لذلك يتمرّدُ على سجن العالم الخارجي، فطالما شُغلَ بالعالم و الأدب و النّاس» (17).

وليس هذا الهروب و العزلة، وإيثار الوحدة والانطواء ، إلا نوعا من طلب الطمأنينة و الأمان ، وجرياً وراء المناعة وتحقيق الذات .وهو مظهر من مظاهر الدّفاع عن النّفس ضدّ كل ما هو خارج عنها،فالمرء يعيش في العالم وهو يحبه ويخشاه ،وهو يريده ويتهرب منه.وهو في كثير من الأحيان يحسُّ نفسه سجينة بين قضبانه و جدرانه فيحن إلى داخله ودفئه . « وهكذا تجمع السّيرة الذاتية سحر "الداخل" ممتزجا بالخوف من "الخارج" ، وعندئذ يصبح من العسير على عالم النّفس أن يحدّد أهمية كل ميل منهما على حدة . ولكن المهم أننا نستشعر–بين الحين و الآخر –الحاجة إلى إرخاء الستائر ،و الانكماش خلف النافذة، و الاحتماء بدفء الموقد الباطني» (18) .

وكاتب السّيرة الذّاتية يدرك بوضوح أنّ الصّلة وثيقة بين "الداخل" و"الخارج". فهو لا يخرج إلاّ ليعود ، وهو لا يحقّق الأفعال في الخارج ، إلاّ لمزيد من خصب حياته الباطنة ، و كأنما المراد من هذه الكتابة تحقيق ضرب من التوافق و التواصل بين العزلة و العالم ،وذلك حينما ترتد الذّات و تعود وقد اكتسبت عمقاً و خصباً.

يقول "زكريا إبراهيم" تعليقا على بواعث الكتابة في السّيرة الذاتية: « نحن نرمي من وراء الفعل إلى زيادة إحساسنا بالوجود ، وتقوية شعورنا بذواتنا .وإذاً فليس في استطاعة الإنسان أن يعيش دائماً مشتتاً في الخارج ، مبعثرا بين الأشياء ، بل هو لابدّ من أن يعود إلى نفسه بعد الفعل، لكي يزيد من خصب حياته الباطنة ، ويضاعف من ثراء عالمه الداخلي . وهكذا يتمثّل البعد للإنسان بوصفه استجماعا لشتات الذات ، وامتلاكاً لزمام النّفس» [19].

وأغلب السّير الذّاتية تكون ملهمة باندفاع إبداعي ، يسبح في فضاء الأدب و الفن، يدفع الكاتب إلى الاختيار و الانتقاء ، ولا يحتفظ من أحداث وتجارب حياته إلاّ على تلك التي يمكنها أن تدخل ضمن بنائه الذي يرجوه ، أو ضمن نموذجه الذي يريد أن يتطابق معه في إطار من الاعتراف والبوح.والإنسان بطبعه يتردّدُ في الكشف عن سرّه ، ولا يبيح دخائله لأعين النّاس و ألسنتهم. ولا يزال كذلك من الخلق الأول، والذين يتشدقون في الكلام عن أنفسهم إنّما يريدون بذلك الخداع وتمويه الحقيقة، ومن ذا الذي يقبل بالحديث في صراحة مكشوفة ، وبغير مواربه عن جشع هو دناءة نفسه وحمقه و فراغ عقله؟

كل إنسان يعيش في الواقع عيشتين؛ واحدة عامة بادية لأعين النّاس، وأخرى خاصة داخلية لا يعلم أسرارها غيره فهو يخفيها،ويستر نواحي الضعف فيها والعيوب.ومن أجل ذلك قال الناقد الإنجليزي "جونسون":"إنّ الذي يكتب عن حياته عنده أوّل
مؤهل من مؤهّلات المؤرخ ، هذا المؤهل هو معرفة الحق".

فالسيرة الذاتية ليست فنّاً ميسوراً،ولاهي في مقدور كل النّاس، بل إنّما تقتضي من كاتبها مشقّة وجهداً، وموضوعية وتجرداً، وإلى كل هذا قوّة على التحليل و التعليل و التحرّي والاستقصاء، وفوق هذا مقدرة على العدل و الإنصاف،« فإذا كان بعض النّاس يميلون للإسراف في مدح أنفسهم وتفخيم أمرها ، فإنّ من النّاس من يجدون متعة في انتقاص نفوسهم و النّيل منها. والمبالغة في ذمّ النّفس ليست أدعى إلى الثقة و أقرب إلى الحقّ من الإسراف في

مدحها»[20]. والنزاهة تنتظر ممن يتحدث عن ذاته بمقدار من يتحدث عن غيره ، وما يعرف معرفة تامة لا يمكن تحريفه ولا تزييفه ،" والإثم ما حاك في نفسك و كرهت أن يطّلع عليه النّاس"، والعقل يؤثر دائماً الحق و يتحراه ، والضمير هو الحارس الأمين للفضيلة ، وليس هناك من دواع للكذب و الافتراء إلا بالتعصب و حبِّ النفس ، وغمط النّاس أشيائهم.

وإذا تكلّمنا عن النزاهة ، فإنّما نقصد نزاهة الضمير و بذل الجهد إلى أقصاه ، وإلاّ فإنّ كتابة السّيرة تعترضها صعوبات وعقبات ، لعلّ أهما: النسيان ، وخيانة الذاكرة و خاصة الأحداث التي بعد بها الزمن و طال . « فنحن حينما نحاول أن نكتب سيرتنا الذّاتية نجد أنّنا قد نسينا الجزء الأكبر من حوادث حياتنا ، وغاب عهد الطفولة ، وحقيقة أنّ بعض الكتّاب يتذكرون أشياء كثيرة عن طفولتهم الباكرة مثل: "تولستوي" و "أنطوني ترولب" ، ولكن في العادة أنّ ما تبقى في نفوسنا من مشاعر الطفولة وذكرياتها قليل لا ينقع الغلّة ، وأغلب ما يكتب في السّير الذاتية عن عهد الطفولة قائم على التخيّل و التلفيق» [21].

وليت النسيان قاصر على عهد الطفولة فحسب، إذن لهان الأمر ،و إنّما هو آفة لصيقة بالإنسان يحدث تقوبه في الذاكرة في مختلف محطّات العمر،وخاصة حينما تكّل الأعصاب وتخور القوة، ولذلك فإنّ كثيرا من كتاب السيّرة الذاتية قد استعانوا بيومياتهم و ما يخطّون،ووثائقهم وما يؤرخون ، وإلاّ لم يكن في وسع معظمهم أن يسجّل تلك الأحاديث و الحوارات ، ولا تلك الوقائع بتفاصيلها و الحوادث بتواريخها،إنّما المذكرات و الأوراق و الدفاتر هي خير من يعين ويرفد الذّاكرة ليكتب صاحبها بهذا الأسلوب الساحر الخلاّب . على أنّ السّيرة الذاتية تتيح لصاحبها التحرّر و الانطلاق ، لأنّ بعده الداخلي بعدٌ روحي يعبر عن عمق الحياة،وفي ذلك البعد و في تلك الوحدة تكمن في إرهاصات إبداعها ، ولذلك قال "نيتشه" :"إنّ كل من قُدِّر له أن يذيع شيئا جليلا في يوم من الأيام ، لابدّ أن يظلّ وقتاً طويلاً في داخل صمته ، وكل من قُدِّر له أن يشعل البرق يوما ، لابدّ أن يظلّ سحابة لمدّة طويلة" .

إنّ الذات فردية بطبيعتها، وتلك الفردية هي العلامة المميزة لذلك الموجود الذي يستطيع وحده أن يقول :"أنا" بدليل ان الحقائق اليقينية تنبع دائما من صميم الذات، و ربّما كان من بعض مزايا "الوحدة" و الانعزال لكتاب السّيرة الذاتية أنّها تردهإلى ذاته ، وتضعه وجها لوجه معها ، فيرتد إلى مركز وجوده ، وينفتح باب الذاكرة و الشعور فتتداعى الصور و الذكريات

والأفكار . فيشعر صاحبها بشيء من القوّة و الغبطة و الثروة ، وتغدو تلك الوحدة محببة أثيرة ، فهي الملاذ الآمن لصاحبها ، وفي عمقها السعادة و الراحة والهدوء، ومن خلالها تنبعث المشاعر التي تخلع على حياته معنى . « وإذا كان "كيركجارد"قد غالى في تقرير أهمية الألم في الحياة الإنسانية ، فذلك لأنه قد فطن إلى الآلام النّفسية التي نعانيها، هي التي تخلع على وجودنا الشخصي كل ما له فردية و أصالة» (22). وربّما كان هذا هو السبب في أنّ كتابة السيّر الذّاتية تكثر و تقوى في أوقات المحن ومراحل الانتقال ، وزمن الاضطرابات و القلاقل ، فالألم كثيرا ما يكون عاملا فعالا يزيد في خصب الحياة الروحية ، ويعمل على صقل الشخصية والمواهب ،بشرط ان يكون دافعا إلى تقويم السلوك ومحطة لتربية أخلاقية مثمرة.

وعطفا على هذه التربية المتحققة ، يبقى السؤال الرئيسي و الأهم في ما مدى صدقية السّيرة الذّاتية ووفائها؟ وإلى أي حد يمكن لكاتبها أن يكون متجرّداً موضوعيا؟

يرى "إحسان بن عباس" أنّ الذّاتية صدق نسبي ، ولذلك كان الصّدق في السّيرة الذاتية "محاولة" لا أمراً متحققا.

نقول هذا و نحن نعلم تلك الحوائل و الحواجز بين تحقق الصِّدق التام فيها.فالنسيان الطبيعي و النسيان المتعمّد ، وإخفاء ملا قيمة له ،والحذف و الزيادة ، وترتيب الأحداث و المواقف و الشخصيات ، كلُّ ذلك من خصائص الفنون الأدبية التي لابدّ لها من بناء مرسوم واضح يستطيع الكاتب من خلالها أن يصوغ صياغة أدبية محكمة.

والصّدق عند الكاتب و الأديب غير الصّدق بمفهوم مشاكلة الواقع و مطابقته « فالكاتب لابدّ له في الفنّ من الاختيار بين الأحداث و الخواطر،وكاتب السيرة الذاتية رغم أنّ موضوعه تاريخي لا يحكي كل ما حدث ، وإنّما يقتصر على النواحي التي تؤيد الأثر المنشود،وهو حينما يلجأ إلا البوح بخواطر فردية محضة ، مثل « "جان جاك روسو" مثلا ، فإنّ هذه النزعة تستند إلى وعي اجتماعي خاص ، وثورة على تقاليد يريد أن يمحوها بهذه الاعترافات ، فهي أسرار فردية و لكّنها ثورية اجتماعية في عاقبة أمرها» (23).

على أن الصّدقية عند الكاتب تستلزم الأصالة في التعبير..وتتجلى في مثاليته وفي تصويره لما حوله تصويراً إنسانياً، فالتجربة الذاتية إنّما هي صورة أخرى لفكر الكاتب وإحساسه لا نقلا لواقعه كما هو.. « والصّدق الفني –تاسيساعلى هذا الفهم–يستلزم إيمانا بالتجربة في معانيها

الإنسانية،كما يراها كاتب السّيرة الذاتية ، وهو يتلاقى في هذا المعنى ، مع الصدق الخلقي ، على النحو الذي يجعلنا نذهب إلى أنّ صدق كاتب السّيرة الذاتية جوهري في تحديد ماهيتها كفنٍّ أدبيٍّ» [24].

والعمل الفنّي له إطار وهوية مستقلة .وهكذا فحينما تكتب السّيرة الذاتية فهي تخضع لمنطق العمل الفنّي الذي ينتقل من ترجمة الحياة إلى تأويلها و إعادة قراءتها ، فهي ليست مطابقة للواقع بالمعنى الحرفي.وإنّما هي فيض من الاستعارة و المجاز وضرب من التخصيص و التأويل في ظل تلك الخطوط الحقيقية للحياة.

فالكاتب ينصرف جهده إلى التعبير عن هذه السّيرة بعد أن يتمثلها ، فهو يراها بفكره و يتأملها ، وهو يبصرها في مرآته العاكسة و يناجيها ..وهو يخضعها للتشريح و الدّرس في ظل الوحدة و الهدوء ،بعدما عملت فيها الايام السنون، فيأتي تعبيره وقد تشبع ذاتية في نشأته، و لكنّه يغدو موضوعيا في عاقبته ، وهو شخصي في تصوير المشاعر ، ولكنّه عالميٌّ في أدبه و نزعته.. وهو أبدا لا يفقد مقوّمات الشخصية لأنّ الكاتب يبقى دائما فردا في محيط و صاحب موقف في جماعة.

ورغم ما يلجأ إليه كاتب الترجمة الذّاتية من تحليل و تعليل ، فإنّه يبقى أديبا يعاني مسألة الخلق .وتكبر هذه المعاناة كونه يترجم لذاته ، فهو يحاول نقل الحقيقة و الالتزام بها،وهو لا يعتمد في ذلك إلاّ على التذكر و الاسترجاع ، وذلك ليس أمراً ذلولاً ميسوراً ،بل هو عملية ولادة قيصرية شديدة التركيب و التعقيد،وهو يعني تغلغلا في الداخل متواصلاً.وهو يعني استنباطا يرشح معه العرف ، وهو في هذا كلّه يقتنص كل ما هو هام ضروري ، وكلُّ ما هو معين على استكشاف التاريخ الحقيقي لحياته النفسية و المزاجية و الفكرية ، « وما نستدل منه على شخصيته ومكوّناتها الموروثة والمكتسبة، في تكامل في جميع أطوار نموّها وتغيّرها ، وفي وحدة تتوافر لا في التنظيم والترتيب ، والتركيب فحسب ، بل تتوافر كذلك في الرّوح العامة للترجمة الذاتية ، وفي المزاج السائد فيها ، وفي النقلة و التدرج من موقف إلى آخر مع مراعاة التزام الحقيقة التاريخية فيما ينقله من أحداث ماضية معززا إياها بالوضوح المعلن عن أسماء الشخصيات و الأماكن ، وبفقرات و أمثلة موجزة معتدلة منتزعة من التواريخ و الرسائل و اليوميات» [25].

فالصدق المحض في السّيرة الذّاتية هو مجرد محاولة وتقريب.رغم أنها أصدق الفنون الأدبية طرا ، والصّدق فيها يبقى نسبياً غير متحقق بالكلية « وبهذا أدرك "جوته" أنّ الترجمة الذاتية شكل من أشكال الذاكرة الرمّزية، حيث أضفى معنى رمزياً على قصّة حياته، إلى جانب المعنى التاريخي وكان إدراكه هذا عميقا ، لأنّ رواية الحقيقة الخالصة عن الإنسان أمر بعيد عن التحقيق بل هو أمر يكاد يكون مستحيلاً ، مهما حرص كاتب الترجمة الذاتية على التزام الحقيقة فيما يكتبه عن نفسه » [26].و"غوته" حين عنون ترجمته الذاتية بالشعر و الحقيقة " لم يعن من ذلك أنه اختار الخيال و الاختلاف و التزييف ،و إنّما أراد استكشاف الحقيقة من حوله و في أعماقه وأن يصفها ، بشكل شعوري يمنح الحقائق من حوله شكلا ترابطيا رمزيا..وهل الحياة في جوهرها إلاّ نسيج صنعت خيوطه من حقيقة وخيال ومزجت ألوانه في خليط الآلام و الآمال . وإذا تكلّم عن الشعر ، فهو مثل الشاعر يعبر عما في نفسه من اضطراب وقلق وصراع واضطرام.وبعد ذلك يمثل للحقيقة في رؤياه ،ويكتب للذات على أساس من التطور في النّفس و خارجها ، فتجيء السّيرة صورة للاندفاع المتحمس أو للتراجع أمام عقبات الحياة ، وربما كانت تفسيرا للاندفاع المتحمّس أو التراجع أمام عقبات الحياة ، وربما كانت تفسيرا للحياة وخطوبها ، وتأويلا للحركة الداخلية و شرودها ، وقد تكون لا هذا ولا ذاك.و إنّما هي مجرّد تذكّر و اعتراف يستعطف الآخر ويطلب منه الصفح و التجاوز « وقد تمتزج هذه العناصر على أنصبة متفاوتة ، فإذا كان الشخص الذي يترجم لنفسه ذا منزلة خاصة في المجتمع ، وكان يرمي إلى إنشاء هذا التعارف بينه وبين القارئ ، وأقام سيرته في بناء فنّي،لم يغفل فيه قيمة الأسلوب وتأثيره ، وكان ماهرا في الربط بين الصّورة الداخلية لحياته و منعكساتها في الخارج ، فهناك تتم سيرة ذاتية مكتملة» [27].وهناك يستمتع القارئ بالفن والأدب.و يملأ نفسه بالمعرفة والتاريخ،و بشيء غير قليل من الحنان و الرضا و الاستحسان.

إنّ أدب السّيرة الذّاتية يتعامل مع الماضي لإعادة خلقه في الحاضر و ربطه بالمستقبل اعتبارا وبناء،لأنّ الماضي ليس بمثابة مجموعة من الذكريات يختزنها الوعي، بقدر ما هو مقدرة على الاحتفاظ بتلك الذكريات و العمل على استثارتها عند اللّزوم.

والسّيرة الذّاتية بعد هذا تعمل على أن يكون للمستقبل مركز الصّدارة والريادة، فهي ترتكز على الماضي مشرئبة إلى المستقبل و متطلعة ، وهي بذلك تحقق مقولة "هيغل":
"إنّ المقولة الأولى من مقولات الوعي التاريخي لا يمكن أن تكون هي الذّاكرة أو التّذكر، بل هي الترقّب أو الانتظار، والرّجاء أو الاستباق". فهي إذن محطة للشحن و التزود، و وقفة للتأمل و الانطلاق.

الهوامش:

1. ينظر: شوقي ضيف: الترجمة الشخصية، ط4، دار المعارف، القاهرة، ص12.
2. المرجع نفسه ، ص 12.
3. يحي عبد الدايم : الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث ، دار احياء التراث العربي ، بيروت،1975، ص10.
4. فيليب لوجون: السيرة الذاتية – الميثاق و التاريخ الأدبي/ ترجمة : عمر حلي ط1، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ، المغرب، 1994، ص23.
5. تهاني عبد الفتاح شاكر : السيرة الذاتية في الأدب العربي، مرجع سابق، ص14.
6. ماهر حسان فهمي: فن السيرة ، مجلة الأقلام ، ج3، السنة الأولى، 1964، ص30.
7. تهاني عبد الفتاح شاكر:السيرة الذاتية في الأدب العربي ، مرجع سابق ، ص16.
8. محمد الباردي: عندما تتكلم الذات – السيرة الذاتية في الأدب العربي الحديث ، سلسلة سرديات، كلية الآداب و العلوم الإنسانية بصفاقس- تونس، 2008، ص 10.
9. إحسان عباس: فن السيرة ط1، دار الشروق، 1996، ص91.
10. المرجع نفسه ، ص94.
11. المرجع نفسه ، ص95.
12. ينظر: شوقي ضيف:الترجمة الشخصية، ط4، دار المعارف، القاهرة، ص60.
13. إحسان عباس: فن السيرة، مرجع سابق ، ص96.
14. يحي عبد الدايم :الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث ، مرجع سابق، ص10.
15. عبد العزيز شرف:أدب السيرة الذاتية ، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، مصر، 1992، ص7.

16. المرجع نفسه، ص08 .
17. عبد العزيز شرف: أدب السيرة الذاتية، مرجع سابق، ص8.
18. زكريا إبراهيم: مشكلة الإنسان، مكتبة مصر، القاهرة، 1972، ص26.
19. المرجع نفسه، ص13.
20. عبد العزيز شرف:أدب السيرة الذاتية، مرجع سابق، ص14.
21. المرجع نفسه، ص17.
22. المرجع نفسه، ص23.
23. عبد العزيز شرف: أدب السيرة الذاتية، مرجع سابق ، ص23.
24. يحي إبراهيم عبد الدّايم :الترجمة الذاتية في الأدب العربي الحديث، مرجع سابق ، ص5 .
25. المرجع نفسه ,ص6
26. عبد العزيز شرف : أدب السيرة الذاتية، مرجع سابق ، ص26.